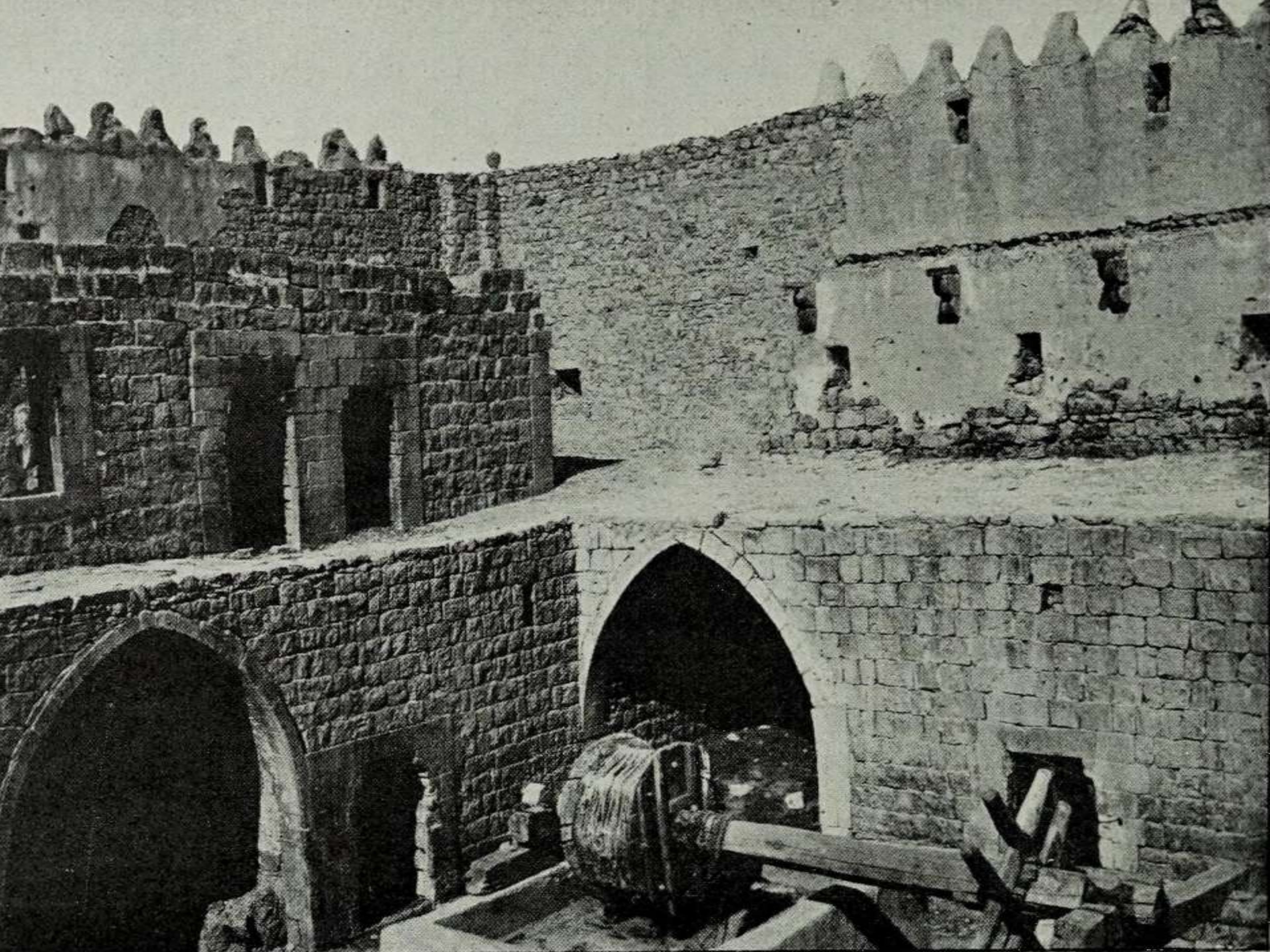


الحسا والجرف، استعراض تاريخي

إعداد: د. أنور الجازي

الحسا خلال العصور القديمة

أثبتت الدراسات الميدانية والعينات المستخرجة، ان وادي الحسا والمنطقة المحيطة به كان يسودها مناخ رطب وبارد، وذلك خلال الفترة ما بين 80000- 60000 ألف سنة. وبعد دراسة الترسبات البحرية والنهرية، يعتقد ان المنطقة كانت تغطيها بحيرة من المياه العذبة.

وقد عثر في احد مواقع وادي الحسا والذي يعود إلى العصور الحجرية القديمة على آلاف القطع الصوانية متعددة الأشكال مثل المكاشط، البلطات، المدقات، الشفرات، وبقايا عظام لحيوانات كانت تعيش في المنطقة، مثل الأبقار، الحمر الوحشية والسلاحف وكذلك النباتات[1].

ويستمر تاريخ منطقتي الحسا والجرف خلال العصور المختلفة، حيث نجد أن وادي الحسا كان الحد الفاصل بين المملكتين الأدومية والمؤابية قبل ما يزيد على 3 آلاف سنة، وصولاً إلى الفترة الرومانية، ونجد اهتمام الرومان في هذه المنطقة لكونها تقع على طريق التجارة بين الشمال والجنوب، وبين سوريا ومصر كذلك، والطريق العسكري الذي كان يربط بين المعسكرات الرومانية مثل اللجون وأذرح، وبسبب تضاريس وادي الحسا الوعرة نلاحظ أن الرومان بنوا جسراً كبيراً على الوادي مكون من 4 قناطر أو عبارات، بالإضافة لمد طريق مرصوف بالحجارة يمتد في الجزء الجنوبي من الوادي، من اجل تسهيل عبور الوادي خاصة في الشتاء[2].



جسر الحسا الروماني، 1898.

---

(1) زيدان كفافي، الأردن في العصور الحجرية، ص93-94.

(2)Mauss, Sauvaire, Voyage De Jerusalem A Karak Et A Chaubak, p.18.

واهتم الرومان أيضا بمنطقة الجرف نظرا لتوفر المياه من خلال بئر قديمة تقع على طرف الوادي، ووجود تلال مرتفعة في الجهة الجنوبية تطل على مناطق واسعة، ومن الآثار في الجرف خلال تلك الفترة، بقايا حصن روماني مساحته 36 متر مربع مبني من الحجر الجيري بني على طرف الوادي بالقرن من البئر. وعلى قمة التل في الجهة الجنوبية الشرقية من الجرف، يوجد برج مراقبة كبير يسمى (قصر البنت)، ويتكون من عدد من الغرف وأقواس، ويظهر في الجهة الغربية من التل ما يبدو انه طريق كان يستعمل لتوصيل البريد لحراس البرج، وكانت وظيفة البرج مراقبة المناطق المحيطة، وهو جزء من سلسلة أبراج بناها الرومان في جنوب الأردن، ومن خلاله يمكن رؤية المعسكر الروماني الكبير في أذرح. وفوق المرتفعات الواقعة إلى الشرق من قصر البنت يوجد عدد من أبراج المراقبة الأصغر(3).

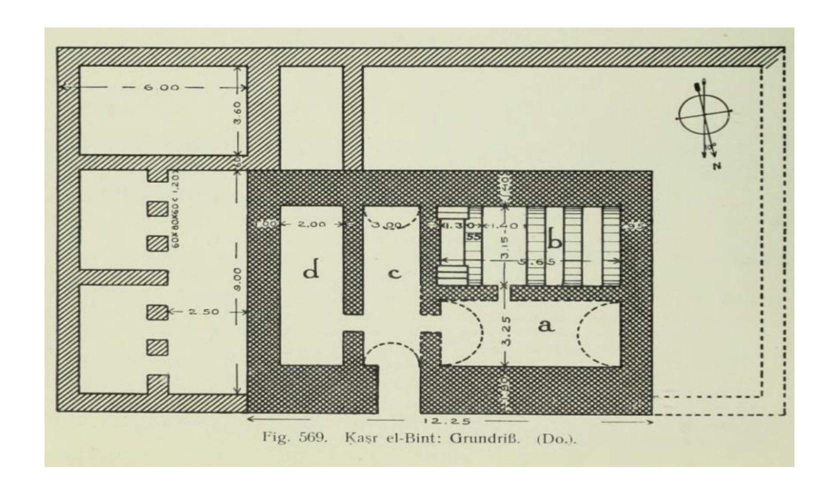


Fig. 569. Kaṣr el-Bint: Grundriß. (Do.).

مخطط قصر البنت، الجرف

خلال الفترة الإسلامية

وتستمر أهمية المنطقة خلال الفترات الإسلامية، وخاصة في الفترة الأيوبية، وجرت في وادي الحسا بعض النشاطات العسكرية والمواجهات ضد الصليبيين المتمركزين في الكرك(4). واهتم المماليك بمنطقة الحسا، ويعتقد أن القلعة بنيت في فترتهم، حيث يذكر ابن شاهين الظاهري في القرن 15 أي أثناء فترة المماليك، أن القوافل البرية المتجهة إلى دمشق كانت تدفع

(3) Brunnow,Rudolf, and Domaszewski,Alfred, (1905), Die Provincia Arabia, p.14

(4) يوسف غوانمه، إمارة الكرك الأيوبية، ص165.

الضرائب في منطقة سماها (جسر الحسا)، حيث أقام المماليك العديد من المراكز الجمركية في مناطق مرور قوافل التجارة[5].

وربما قام العثمانيون بتجديد القلعة وترميمها، لخدمة قوافل الحج الشامي، بالإضافة لكونها مركزاً لموظفي الديوان، فقد ذكر ابن طولون، أن نائب دمشق كان يخرج من المدينة إلى الحسا ليقيم فيها أثناء الحج من اجل استقبال الحجاج العائدين من مكة المكرمة، وكان يحمل معه المؤن والطعام للحجاج[6] .



قلعة الحسا، ويشاهد الناعورة الخشبية التي كانت تستخدم لسحب المياه من البئر،1908.

وذكرت المنطقة في كتابات الرحالة المسلمين والأجانب، فقد قال محمد الحسيني الملقب (كبريت) (ت 1659)حينما عدد منازل الحج الشامي: ... (ثم بتنا في الحسا من أعمال الكرك، وفيه نهر لطيف وملاقاة) [7]. فيما ذكر أيوب صبري باشا (ت 1873)، ان الحسا مرحلة من مراحل الحج بعد مرحلة القطرانة، وفي بعض الأحيان كانت القوافل تتجه غربا إلى اللجون للتزود بالمياه، ثم نحو الجنوب الشرقي إلى الحسا، وعند وصولها كانت المؤن ترسل للقوافل من الكرك والشوبك[8] . وتحدث محمد كرد علي في مجلة المقتبس بداية القرن العشرين، عن الحسا حيث اعتبر وادي الحسا من أعمق أودية سوريا، وكان الراكب ينزل من ذروته إلى قراره في

([5]) يوسف غوانمة، التاريخ الحضاري للأردن في العصر المملوكي، ص238.

([6]) المرجع السابق، ص238.

([7]) محمد الحسيني، رحلة الشتاء والصيف، ص232.

([8]) أيوب صبري، موسوعة مرآة الحرمين، جزء5، ص168.

ساعة ونصف، ويصعده في أكثر من ذلك، وتتجمع إليه مياه الشراه وينابيع كثيرة، ويصب في البحر الميت[9].

ووصف الرحالة الأجانب قلعة الحسا، ومنهم بيركهارت 1812، الذي مر على القلعة وذكر انها تحوي في وسطها على بئر وتسحب المياه منها بواسطة عجلة كبيرة، وذكر ان الوادي يسيل في الشتاء من الشرق إلى الغرب، وهو جاف صيفاً، وعلى بعد ربع ساعة غرب القلعة توجد عدة ينابيع من المياه العذبة الدائمة[10].

وفي عام 1860 وصل إلى الحسا الرحالة الفرنسي موس قادما من الكرك في طريقه للبترا، وقد وصف الجسر والقلعة وقال انها بناية كبيرة مربعة الشكل لها فناء أو ساحة مركزية تتوزع حولها الغرف والمخازن، وبالقرب من القلعة بركة كبيرة قام الحراس بعمل حديقة صغيرة بجانب البركة، واكتشف موس نقش باللغة العربية في جدار الغرفة الوسطى في الجانب الجنوبي من الطابق الثاني، ويحتوي النقش على الأبيات الشعرية التالية:

يا حُسنة الله معبد بناه للتقوى وشيد

ملك يسمى المصطفى سلطاننا من نسل احمد

في جنة المأوى له دار منورة ومقعد



نقش قلعة الحسا، 1898.

(9) مجلة المقتبس، عدد 58، ص40.

(10)Burckhardt, Travels In Syria And The Holy Land, p17.

وبحسب اعتقاد موس ان المقصود بالمصطفى هو السلطان العثماني مصطفى الثالث الذي حكم خلال الفترة 1757-1773[11].

ومن الرحالة الأجانب الذين زاروا الحسا والمنطقة، الانجليزي داوتي عام 1875، ولانجر 1885، وغراي هيل 1892الذي مر على القلعة وذكر أن جدرانها الشمالية والشرقية معرضة للانهيار، وقال أن مياه البركة لم تكن صالحة للشرب، أما البئر فتحوي على مياه جيدة.

خلال القرن التاسع عشر وصف العديد من الرحالة الأجانب قبيلة الحجايا، ومنهم بيركهارت 1812 وعند مروره بوادي الحسا شاهد عدد من المزارعين الذين كانوا يزرعون المنطقة المحيطة بالقلعة وفي الوادي، بمحاصيل الذرة والشعير لصالح عرب الحجايا مقابل حصولهم على أجرة تقدر بنصف المحصول الناتج[12].



وادي الحسا

وفي عام 1845 قام الفنلندي اوغست فالن برحلة في جنوب الأردن وشمال الجزيرة، وأثناء تجوله في مناطق الطفيلة ذكر قبيلة الحجايا وأشار إلى أنها قبيلة كبيرة تسكن المناطق

([11]) Mauss, Sauvaire, Voyage De Jerusalem A Karak Et A Chaubak, p.18

([12])Burckhardt, Travels In Syria And The Holy Land, p17.

الواقعة إلى الشرق من الطفيلة، وأنها تملك عدد كبير من الخيول الأصيلة والمرغوبة كثيرا في سوريا ومصر[13].

اما الألماني اوبنهايم فقد ذكر في مؤلفه (البدو) ان الحجايا هم القبيلة البدوية الرئيسية في منطقة جبال، وبئرهم هي التوانه ويصلون في الشمال عبر وادي الحسا حتى اللجون، وكانوا في السابق يصلون إلى المناطق الواقعة وراء وادي عربه وأحيانا القدس[14].

وكانت قبيلة الحجايا خلال الفترة العثمانية مسؤولة عن حماية الحج الشامي في المناطق التي كانت تمر فيها القوافل، من القطرانة إلى الجرف كما توضح ذلك احدى الوثائق العثمانية.

فترة الثورة العربية الكبرى

كانت لمنطقتيّ الحسا والجرف أهمية كبيرة خلال الثورة العربية باعتبارهما البوابة الشرقية للطفيلة وتضمان محطتي لسكة الحديد التي كان يعتمد عليهما الأتراك في توصيل السلاح والرجال إلى الطفيلة. وتقع محطة الجرف على الكيلو 398 من دمشق، وتتميز بقوة أبنيتها حيث تستند إلى واد عريض في جهتها الشرقية، وعلى حافة الوادي يوجد بئر قديمة، وتحوي المحطة على صهاريج مياه، وهي تشبه محطة الحسا في التصميم. وتكمن أهمية الجرف أثناء الثورة في انها ساعدت القوات العربية على حصار القوات التركية في معان وقطع المواصلات والمساعدات القادمة من دمشق. ووجدت القوات العربية أن السيطرة عليها يؤمن الطريق إلى الطفيلة. جاء الهجوم من المرتفعات الشرقية المطلة على المحطة، ومن الجنوب، ثم تحركت القوات نحو الطفيلة[15].

([13]) اوغست فالن، صور من شمالي جزيرة العرب، ص35.

([14]) ماكس اوبنهايم، البدو، الجزء 2، ص409.

([15]) بكر المجالي، المسارات العسكرية للثورة العربية، ص 137.

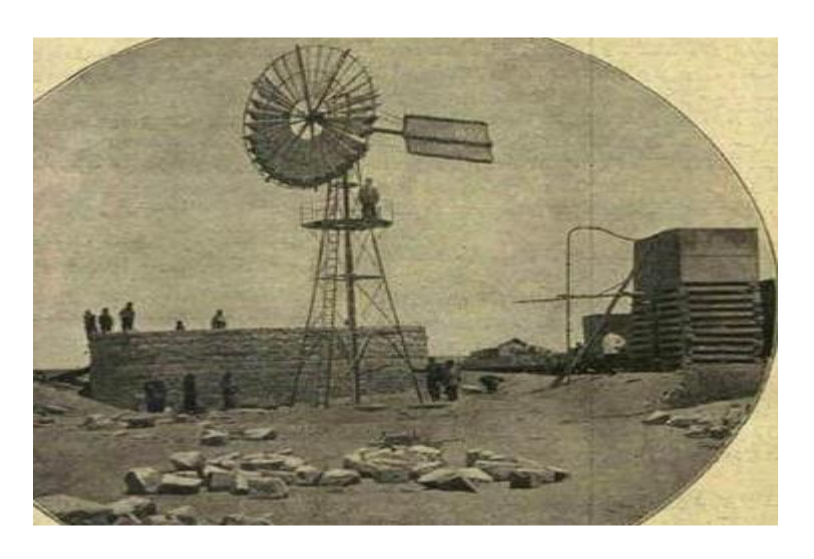


محطة الجرف، 1938.

اتخذ العرب من الجزء العربي من وادي الحسا نقطة انطلاق لتنفيذ هجماتهم على محطة الحسا وفريفرة والقطرانة، وعلى خطوط المواصلات التركية، وتدمير قضبان السكة والجسور ومنع وصول إمدادات من الشمال إلى معان، وكانت محطة الحسا محصنة جيدا بالخنادق والأسلاك والألغام، ورغم ذلك استطاعت القوات العربية اقتحام المحطة التي استسلم فيها ما يقرب من 65 جندي تركي والاستيلاء على أسلحة ومعدات، وتابعت القوات العربية هجومها على محطة الفريفرة التي تقع شمال الحسا 11 كلم، غرب الطريق الصحراوي وهي الآن مهدمة تماما بسبب توسيع الطريق، وهاجمت القوات العربية المحطة أكثر من مرة، وكان أقواها هجوم القبائل من الحجايا بقيادة جلال أبو جفين والحويطات بقيادة عوده أبو تايه.

وشاركت قبيلة الحجايا في العديد من معارك الثورة وخاصة في الطفيلة وما حولها، وإحدى معارك الرشادية استشهد اثنين من شيوخ الحجايا هما جلال أبو جفين وجلال الهواملة، وقد قال الأمير زيد بن الحسين في مذكراته أنهما أبرزا شجاعة كبيرة تسجل في التاريخ[16].

([16]) زيد بن الحسين، مذكرات الأمير زيد ، ص97.



محطة الحسا، 1908.

الفترة الحديثة

ساهمت قبيلة الحجايا أثناء تأسيس أمارة شرق الأردن ومؤسسات الدولة مثلها مثل بقية القبائل، فنجد مثلا مشاركتها في تأسيس قوات البادية في الثلاثينات، وكان الشيخ غيث بن هدايه احد أعضاء لجنة اختيار نائب بدو الجنوب في المجلس التشريعي عام 1942، وغيرها من الإسهامات الأخرى، وفي عام 1959 تعرض الأردن وخاصة الجنوب لعاصفة ثلجية كبيرة وكانت الجرف المكان الذي نقلت له العديد من العائلات من الحجايا والمطالقة الذين كانوا يسكنون في بيوت الشعر في المرتفعات الغربية، وكان بئر الجرف مصدرا مهما للمياه خلال تلك الفترة، وكانت أبناء العشائر من الحجايا والحويطات يلتقون عليه، وفي ستينات القرن الماضي استقرت القبائل البدوية في البلدات، وبدأ الأهالي يبنون بيوتهم في الحسا والجرف، وعملت الدولة الأردنية على إنشاء المشروع الزراعي في الحسا، وفي عام 1966 أنشأت مصنع فوسفات الحسا الذي التحق للعمل به الكثير من أهالي المنطقة.

وفي منتصف الثمانينات حفرت الدولة بئر الجرف وهو المعلم الشهير على الطريق الصحراوي، وكانت تستخدم فيه طاقة الرياح لاستخراج المياه الجوفية وضخها لقرية الجرف، وأيضاً لسقاية الإبل والمواشي في المنطقة، ونفذت الجمعية العلمية الملكية هذا المشروع بالتعاون مع وزارة التعاون الألمانية، وكان الأردن من أوائل دول المنطقة في استخدام الطاقة البديلة، وخاصة في مناطق الجنوب.



البلدة التراثية في الجرف.



بئر الجرف